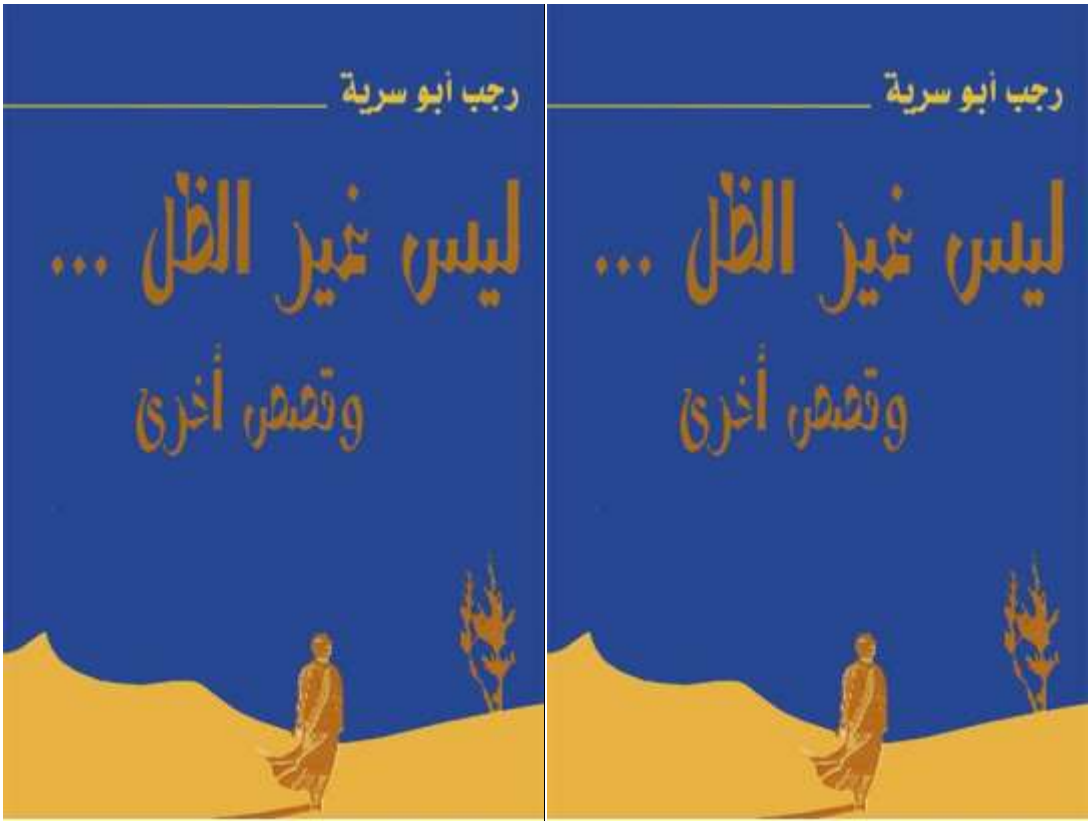
رجب أبو سرية
ليس غير الظل ...
وقصص أخرى

ليس غير الظل

بروش شيلو

بروش شيلو ... بروش شيلو ...

صاح الجندي المختبيء خلف سيارة الجيب العسكرية بفرح ، ودون أن تهتز بندقيته المنتصبة أمامه ، والتي بدت كأنها جزء منه ، وقد كان يكزّ على أسنانه ، فتخرج العبارة التي ردّدها عدة مرات حادة ومثيرة ، كأنها صلية رشاش . ثم أخذ يتقافز جذلا ، فيما كان مصطفى ، الفتى الذي أصابته الرصاصة في رأسه ، يتهاوى مثل جذع شجرة يانعة ، قصّه منشار على حين غرة ، يترنح يميناً فتميل الأرض معه باتجاه اليمين ، ثم يميل شمالاً فتميل الأرض معه ناحية الشمال ، ثم يكبو على ركبتيه ويتطلع بنظرات مذعورة إلى كائنات غير منظورة لفّها الأفق .

منذ ساعات والجندي عازار يراقب الفتى الذي كان ينطلق كالسهم من زاوية لأخرى ، يكتم غيظه ، ويتحين الفرصة للتصويب ، رغم أنه كان قد انضم منذ الصباح ، متثاقلاً ، إلى المجموعات المشرفة على أمن مخيم عسكر في نابلس ، بعد أن قضى ليلة خائبة مع صديقته راحيل , حاول طوالها أن يثبت رجولته معها حتى الصباح ، لكنه لم يفلح ، وكان يمنّي النفس لو يطول به الوقت ، فحمل شعوره بالإحباط والغيظ من حيوية هؤلاء الفتية ، الذين لا يكلّون ولا يتعبون ، وما عاد يفكر في شيء سوى أن ينهي مهمته بأسرع ما يمكن ، ليعود إلى فتاته ، يحاول معها مرة اخرى . وبقي هكذا طوال يومه ، وكلما ألقى فتى بحجر، تذكر قذفته الخائبة وضحكات راحيل فيضطرب كيانه ، وتنطلق منه الرصاصات عشوائياً وبكثافة في كل إتجاه ، حتى إذا ما أصاب الرأس صاح منتشياً "بروش شيلو"، ومن البعيد كان يخال وجه راحيل يفتر عن علامة الرضا ، فيهدأ قليلا ، ثم تدفعه النشوة ، ليحاول مرة أخرى .

إلتقاها عصر أمس ، وسارا يدا بيد في شارع هاديء ، تلفهما السعادة ، كطائرين التقى أحدهما الآخر أول مرة ، ينظر إلى المتطاير من خصلات شعرها ، بعد أن تنكسر أشعة الشمس وهي تهوي صوب المغيب ، يجتاحه الخيال والأمل ، فيهمس كعاشق عذري ، بعد أن يتلفت حواليه : أحبك ، تحمر وجنتاها ، وتطرق رأسها ، في حين تتكور أصابعها في حضن يده المتعرقة ، وبعد إلحاح منه ، تهمس : وأنا كذلك ، لكنني قلقة عليك يا مصطفى! فيجيبها بحماس : لا عليك, يمكنني أن أقاتل الدنيا بحبك .

وحين إفترقا قال لها:

- موعدنا غداً، أو بعد غد، بعد شهر أو سنة ، أو قرن من السنين ، في وطن جميل ، لا قتل فيه ، ولا غبار .

غام الأفق وإنتثر الغبار، لكنها جاءته على عجل بفستان أبيض ، وكان لها جناحا ملاك .

مدّ يده ليطير معها مخترقاً حواجز السنين الراعفة ، ثم تطلع بعينيه للمرة الأخيرة وصوّب نظره باتجاه قاتله وهتف : القاتل .

إنتبه رفاقه من حوله إلى الجندي الذي ما توقف عن إطلاق الرصاص ، فداروا دورة باتجاه القتيل ، ثم حملوه على أكتافهم ، وقد ألهب الدم الحار حماسهم ، فاندفعوا يهتفون :

- بالروح... بالدم نفديك يا شهيد .

أما الجندي عازار فتوقف برهة ، وفتح سحاب بنطاله ، وقبل أن يعاود ترديد عبارته التي كانت تختلط مع أصوات الرصاص والجلبة في الجهة المقابلة ، صوّب فتى مقلاعه وقذف به باتجاه الجندي المنتشي لقذفته القاتلة ، عندها ترنح الجندي من الألم ودون أن يقوى على كتم صرخته ، انطلقت العبارة من فمه:

- يا حيوان بروش شيلو!

* * *

بروش شيلو بالعبرية تعني: في رأسه

أحاديث الناس

[المكان : بقعة مما يسمى بالعالم الثالث .
الزمان : لحظة عابرة لن تعلق في ذاكرة الأجيال القادمة]

في كل محطة جديدة كانت تتزاحم الناس وتتشعلق بالحافلة العامة ، التي أقلت بداخلها وعلى أطرافها أضعاف ما تحتمل ، حتى بدت كامرأة بدينة عرجاء تميل في سيرها على جنبها ، فيشفق عليها من يراها ويخال المرء أن الحافلة لو كانت كائناً حياً "لطقّت" من كثرة حمولتها وماتت .
وكانت الأجساد المتراصة تشعل الدوار في رأسك من حرارتها ، ولا تترك لك مجالا للتنفس سوى زفير جيرانك وروائح العرق والأفواه النتنة ، فتشعر أنك في جهنم .
صاح أحد الركاب بالسائق :
- إمش يا.. تأخرنا عن أعمالنا .
تابع آخر :
- شو طالع من القبر بسند كفالة؟
أجاب السائق :
- من لا يعجبه يأخذ تاكسي!
وهكذا إمتدت الملاسنة بينهم حتى كادوا أن يشتبكوا لولا أولاد الحلال .
في هذا الجو , والوقت يسير بطيئاً ومملا، حاول أحدهم أن يخفف عنا ، وربما بالأساس عن نفسه.
فقـــال :
- هذه الزحمة أصبحت جزءاً من حياتنا ، لا نقوى على الاستغناء عنها ، أمس مكثت أكثر من ثلاث ساعات في طابور الجمعية ، وحين وصلني الدور، إنتهى الدوام وعدت إلى زوجتي خائباً ، فلم أحصل على الثلاثة كيلو رز ، التي كانت مقررة لنا : حتى كاد أن يقع بيننا أبغض الحلال!
أضاف آخـــر :
- من الساعة السادسة صباحاً نهضت اليوم ، وبقيت أزاحم على شباك الفرن ، حتى تخيلته الحجر الأسود ، الذي يحج إليه الناس كل عام ، وحتى تمزقت ثيابي وانهدت أوصالي ، ولكنني أحمد الله أنني حصلت أخيراً على 2 كيلو خبز .
تبادلت الأجساد المتراصة النظرات الزائغة ، وتلصصت حواليها ، فأضاف الرجل الأول وكأنه يطمئنهم :
- أنا لا أتدخل في السياسة ، بل أتحدث في الأكل ، في الخضار وخلافه ، يعني في الاقتصاد ، فيما تواصل الحديث في الاقتصاد العائلي :
- يا أخي إعمل حسبه بسيطة ، تجد أن مرتبك يكفيك أربعة أيام في الشهر، وبعد ذلك نحن محرومون وأطفالنا من كل شئ .
حينها إنضمت إلينا امرأة شابة فقالت :
- أمضيت أكثر من أسبوع من صيدلية لأخرى ، أبحث عن حليب لطفلي ولا حياة لمن تنادي .
- قال آخـــر :
- أنا أبي مات وما زلنا نحن وأهل الحارة جميعاً نبحث له عن الدواء الذي وصفه له الطبيب .
قال الرجل الأول :
- ماذا يمكنك أن تحكي أو تحكي ، أي لو إحتجت لمعاملة ، كم من الأوراق والأختام وكم من دائرة تدور وتلف عليها حتى تنتهي ، كأن الواحد لا عمل له سوى اللف على الدوائر .

- علّق آخر :
- أنا أمضيت ثلاثة أيام وأنا أبحث عن موظف الكهرباء حتى أُسدد الفواتير ولا أجده , فكان أن أخذت عنوانه وذهبت إليه في البيت ، فكادوا أن يتهموني بقضية رشوة ، ولا أراك الله ، مئة واسطة حتى نفدت بجلدي .
تدخل رجل كان يصمت طوال الوقت قائلاً :
- ما هذه الروح الانهزامية ؟ نحن في حالة حرب !
فسأل الرجل الأول :
- حسن ولكن أين هي ؟
- لا أدري .
- أجابه الرجل وأضاف :
- المهم ، لا صوت يعلو فوق صوت المعركة !
ردّ عليه الرجل الأول :
موافقون ، لكن سلّحونا بالخبز .
ردّ من كان صامتاً :
- أي إحمدوا ربكم أنكم لا تدفعون ثمن الشمس كما تدفعون ثمن الكهرباء ، وانهم لا يعدون عليكم الهواء الذي تتنفسونه بدون مقابل وهو ثروة قومية!
سألني الرجل الأول :
- هل سمعت مونت كارلو الساعة الثامنة؟
- نعم .
أجبتـــه :
- ما هي الأخبار؟
سألني
- إنتخب الأمريكان رئيساً جديداً .
- أجبته :
- يا لحسن حظهم ، كل أربع سنين ينتخبون رئيساً جديداً .
وأضاف :
- يا أخي أمريكا دولة عظمى ، وكل أربع سنين تنتخب رئيساً جديدا ولا يحدث لها شئ .
توقفت الحافلة ، فنزل الرجل واختفى .
مال إلي رجل كان صامتاً طوال الوقت وقال :
- انظر ابن الـ... قال أربع سنين قال !
وتابع الرجل الذي ما كنت أعرفه قبل ساعة بحماس :
- من حسن حظه أنه نزل ، ولو بقي حتى المحطة الأخيرة ، لكنت أرسلته إلى جهنم . نظرت إليه وأنا أكتم ضحكة في صدري ، فيما أضاف :
- كنت سقته مثل نعجة إلى بيت خالته ، حتى يرى نجوم الظهر وينسى إسمه .
وقبل أن يسترسل أكثر من ذلك ، بادرته قائلاً :
- أنا لست من الأمن .
- هيء ولا أنا .
وانفجرنا كلانا في ضحك عميق .

* * *

الظـــــــلال

الجدران صماء والشوارع ميتة والبيوت ملقاة في فوضى هنا وهناك، الصمت مخيم والسكون موزع على الأركان ، والعنكبوت نسج خيوطه على حواف النفس ، فانبثق همس الأنين ، وترددت أصداؤه بين جوانح القلب ، الذي إنكمش كقنفذ صفعته موجة برد مفاجئة يترقب في مكانه .

الناس أشباح تمر بك بين لحظة وأخرى ، تمر على عجل ، فلا تنتبه لك ، كيانات مكتومة على ذاتها ، تملؤها الهموم ، وألقت بها العذابات على هوامش العجز، حتى صارت كيانات ، مجرد كيانات من ورق ، أشباح.. ظلال.. أوهام.. تسير في كل اتجاه ، وما أن تهب ريح ما, حتى تلقي بها في مكان ما .

البحر هادر، وهي ككومة قش طافت ثم تناثرت على سطحه المائج , ظلال.. لا ترى العين إلا الظلال ، كيانات ميتة ، لا يربطها بالحياة سوى نفس يصعد ويهبط ، الهم في القلب ، والجرح في النفس والصوت مكتوم ، وليس سواه يصخب في أذني ، صوت آلة السحب "الستانسل"، بم.. تك، بم.. تك ، وأنا أراقبها في هدوء وهي تلفظ من جوفها خارجاً الورقة تلو الأخرى ، إلى أن تجمعت "رزم" الورق الجاهزة للتوزيع على عباد الله ، كنت أتأمل تلك الأوراق ، فأقوم "بحسبة" سريعة لتكلفة الورق والحبر، وأتمنى لو أنهم يتبرعون لي برزمة منها حتى أستفيد منها بكتابة شيء ما ، أقرأه بشغف على أصدقائي .

بم.. تك، بم.. تك وتدور الآلة في رأسي ، وتطبع آلافاً من الأوراق التي ما تلبث أن توزع على الناس ، وأنا واحد منهم ، أدسها في جيبي وحين أعود إلى البيت ، أتأملها ، كانت ورقة بيضاء رائعة ، إلى أن فضّت نصاعتها تلك الخطوط السوداء ، التي سالت في أكثر من جهة بفعل الفوضى الناجمة عن الإهمال ، وعن بدائية الآلة ، اقرأ فيملأني الصخب ، أعيد القراءة فينتابني التوتر، يا إلهي إن الوضع خطير، أستر يا رب ، العالم على حافة الهاوية!

أعيد طي الورقة ، أتأملها من جديد ، ماذا عساي أفعل بها ؟ أشعر برغبة جامحة لفعل شئ ما ، أشعل سيجارة ، وأحاول أن أهديء من روعي ، تعود التكتكات إلى رأسي ويتواصل سحب الأوراق ، فأعود إلى حالة التوتر من جديد ، أنهض وأخرج من البيت . أصل إلى بيت زميل لي ، أدق الباب ، يستقبلني الرجل بشيء من اللامبالاة ، أطرح السلام ، تفضل ! أدخل وأسلم على الحاضرين ، لحظات ويبدأ النقاش :

- أنا أعتقد أن الوضع في غاية الخطورة ، وأن الحرب التي لا بد منها , باتت على الأبواب !
- ستكون حرباً مدمرة .
- أنا أتفق معكما ولكنني أتساءل عن ردة فعل الجماهير .

صاح آخر :

- سيكون عنيفاً !

أكمل الرابع :

- ولكن كم ستكون درجة هذا العنف ؟

هتف الأول :

- أنا أعتقد ...

صاح الثاني :

- أنا أتفق ...

أكمل الثالث :

- ولكن من سيكسب الحرب ؟

سأل الرابع :

- المسألة تتعلق بالظروف الموضوعية .
تدخل الثالث :
- ولكن ماذا عن الظروف الذاتية ؟
تساءل الثاني :
واحتد الجدل الذي إستمر ساعات دون أن تلوح في الأفق بادرة بانتهائه إلى أن تدخلت قائلاً وقد لاحظت أن الجماعة كادوا أن يشتبكوا :
- يا جماعة ، ولكن ماذا لو لم تنشأ الحرب ؟
- وهنا دار الجدل من جديد .
– في هذه الحالة أنا أعتقد بأن صفقات عديدة سوف يتم عقدها بين العملاء !
– ولكن ماذا سيكون موقفنا ؟
- أنا أعتقد أنه لابد أن يكون لنا موقف حاسم .
- نعم وماذا عن الآخرين ؟
دارت الآلة من جديد ، تك.. تك ، يا إلهي تتحرك الشفاه الثمانية دون أن تميز أصحابها ، أغمضت عيني وحاولت أن أفهم شيئاً ، لكن الأصوات تشابهت فاختلط الأمر أيضاً ودارت الآلة . كان كل واحد منهم يمسك بورقته ويقرأ.. وتدور الرؤوس وتهتز وترسم علامات التعجب .
خرجت وأنا أسابق ظلي ، تتقطع أنفاسي ، إلى أن وصلت البيت ، ألقيت بجسدي المنهك على الفراش ، وحاولت أن أنام ، فعادت الآلة من جديد والورق ينساب من جوفها كسيل من الحليب الأبيض الذي تغطى بالحبر، حاولت أن ألتقط لحظة هدوء واحدة فرأيتهم أرقاماً.. عيداناً من القصب : واحد ، اثنان ، ثلاثة.. وقد إصطفوا طابوراً واحدا وراء الآخر، ومن وراء الأفق رأيت رجلاً واحداً ضاعت ملامحه وقد تتابعت من وراءه مجموعة من الظلال ضائعة الملامح ، تابعتها ، واحد..، اثنان.. ثلاثة.. أربعة , كانت تصغر كلما امتد الأفق بالنظر إلى أن تصير مجرد ظل باهت .

* * *

الأستـــــاذ

إنه الأستاذ درويش !
صاح صديقي محمود .
- ليس معقولاً .
أجبت . واندفعت أزاحم القامات التي تراصت باتجاه بوابة الخروج ، وما أن إنتهيت من آخر درجات السلم الذي ينتهي إلى رصيف شارع الملك حسين ، حتى بدأت أهرول ، فيما كان صديقاي محمود وعبد الله , يسيران مسرعين خلفي حتى وصلت إلى تقاطع الإشارة الضوئية المقابلة لمحلات جبرى .
إضطرته الإشارة أن يتوقف ، وكان يجاهد أن يبتعد عن جموع رواد السينما بعد أن انتهى العرض ، وقفت بجانبه وكانت إندفاعة الجرأة التي إمتلكتني لإحراجه قد خفّت قليلا ، فيما كان الإصرار على أن لا يفوتني كل شئ ، ما زال يجتاحني .
همهمت بالكلام وأنا أشيح بوجهي عنه ، أخاطب صديقيّ وأنا أتعمد في نفس الوقت أن يسمع ما أقول :
- لقد كان فيلما ممتعاً ؟ أليس كذلك .
لحظات وأضاءت الشارة لونها الأخضر، فقطع الشارع ، فيما واصلنا طريقنا , كل إلى بيته . ما أن استلقيت على فراشي حتى انتابني شعور بالظفر من هذا الرجل الذي طالما أحرج زميلنا غسان ، الذي كان يناقشه بجرأة في أمور الدنيا والدين ، وفي حرية المرأة بالعمل وكان يهزأ به :
- هيء، هل تسمح لأختك بأن تعمل؟
- نعم .
- وأن تحب؟
- نعم .
- وأن تتزوج بمن تختار؟
- نعم .
فيجيب مختتماً الحوار . أنتم ملحدون ، الواحد منكم لا يتورع أن يتزوج من أخته .
كنت أعجب في أعماق نفسي بجرأة زميلنا غسان ، ولكنني كنت أحجم أن أكون مثله أو أن أوافقه الرأي ، مخافة أن تتأثر علامتي النهائية في التربية الدينية .
ما أن دخلنا المدرسة الثانوية ، حتى بدأنا نشعر بأننا قد أصبحنا رجالا لنا رأينا الذي نحاجج به أساتذتنا ، وما أن جاءت الحصة السادسة ، وأطلّ علينا معلم التربية الدينية ، حتى شعرت بالانقباض من شكل هذا الأستاذ ذي الحاجبين الكثيفين والشاربين الموزعين في فوضى واضحة على جانبي وجهه ، المتكاثر اللمحات ، الممتليء القامة الذي لا يضحك للرغيف السخن !
ولكنني رغم كل شيء ، رغم انقباضي من رؤيته ، ومن حزمه ، ورغم أنني لم أكن أقتنع بكل وجهات نظره وتعاليمه إلا أنني كنت أصمُّ ما يفرض علينا من آيات وأحاديث حفاظاً على الدرجة النهائية التي تعودت أن أتحصل عليها في نهاية كل عام .
كان يعتبرني طالباً مثالياً ، مجتهداً ، ما أن يدخل حتى يشير إلي أن أقرأ الآيات المطلوبة . في تلك الحصة ، وكالعادة طلب مني يوماً أن أقرأ فاختلطت عليّ طريقة الإلقاء الشعري بالتجويد ، فقرأت ، وما صحوت إلا وضحكات التلاميذ ترتجّ لها زوايا الفصل .
في ذلك المساء إتفقنا ثلاثتنا على الذهاب إلى أستوديو زهران ، لنشاهد شيئاً من المتعة ، التي بدأت تثير كياننا ، وقد بدأنا لتونا نكتشف أسرار تلك التغيرات التي طرأت على أعضائنا ، وحولتنا رجالا نمارس فحولتنا في المراحيض ، أو في الفراش حين تغمض العيون من حولنا وننتشي لذلك الإحتلام الذي يجيئنا في النوم ولا نصحو إلا مع دفق الماء الدافيء خارج أوصالنا .

كانت الصالة مكتظة بروادها ، مما إضطرنا أن نتوزع في أماكن مختلفة .
ولم أنتبه أنا إلى ذاك الرجل الذي جلس في المؤخرة قريباً من بوابة الخروج .
حيث كان آخر شخص يحضر إلى الصالة .
لكن صديقي محمود إنتبه إليه ، وربما لم يفكر كثيراً لحظتها ، مخافة أن يضيع مشهد من الفيلم الذي بدأ ينطبع على الجدار مع بداية دخولنا .
توترت أعصابنا طوال ساعتين ، فيما كان الحرص يجتاح كل واحد منا أن يحتفظ في خياله بما يرى ، إلى أن يختلي بفراشه الدافيء حين يقترب موعد النوم .
ما أن ينتهي العرض حتى يتسابق الشباب إلى بوابة الخروج ، قبل أن يرى الواحد منهم صديق له ، فينظر إليه نظرة فيها إدانة ، توحي بافتقاره إلى الأخلاق .
في الحصة الأولى عرّف الأستاذ على نفسه ، ويومها بدأت أفكر في سر هذا السم ، المحشو بالتقوى والصرامة وأتساءل في نفسي عما يمكن أن يكون محشوا به ذلك الأستاذ درويش؟ تأكد محمود وكان قد لمحه قبل أن يخرج من بوابة الصالة من أنه الأستاذ درويش .
في اليوم التالي ، تهيأنا كالديوك للحصة الأخيرة ، وما أن دخل الأستاذ درويش حتى احتد جدل النظرات بيننا ، فانكسرت نظراته ، وتهدج صوته... طلب مني أن أقرأ ، فاعتذرت وما عادت تهمني الدرجة النهائية في نهاية العام .

* * *

وميض الرغبة

كان الشيخ علاء كلما صعد أو هبط الدرج الممتد من باب العمارة إلى شقته في الطابق الثالث ، داخلاً أو خارجاً منها ، وصادف جارتهم السيدة ماجدة وهي تقوم بتنظيف الدرجات التي أمام شقتها ، يتنحنح ، حتى تشعر بوجوده لتنتصب فتستر ما ظهر من ساقيها ، دون أن يرفع نظره ويلقي السلام ، فترد بأنوثتها وتبتسم ابتسامة لا يسمع صوتها ، ولكنه يشعر بها على كل حال .

وكان من عادته أيضاً كلما دخل إلى البيت ووجدها في زيارتهم ، أن يقوم بحثّها على ضرورة أن تستر شعرها وأن ترتدي الزي الشرعي ، ويحاول إقناعها بأداء فريضة الصلاة ، ويدعو الله لها بالهداية. كانت تسأله بدورها حول استخدام المرأة للمساحيق ، فينظر إليها ويرى شفتيها المتشحتين باللون الأحمر ويجيب : إنه يجوز للمرأة أن تتبرج في بيتها ولزوجها فقط ، وما دون ذلك فهو حرام ، ثم يستعيذ بالله في سرّه ليواجه لحظة الاشتهاء التي مرت بخاطره .

خمسة عشر عاماً قضاها الشيخ علاء مذ كان في السابعة من عمره ، وهو لا يقطع له فرضاً ، يصلي الفروض الخمسة في أوقاتها ، يصوم رمضان ، ويتمنى حج البيت ، حتى أشتهر في الحي كله باستقامته وصار مرجعاً للناس يتقدمون إليه بالإستشارة فيما أحله الله وما حرمه لعباده من المسلمين . وكان حين يضطر في الجامعة إلى المرور من أمام كافتيرياتها ويرى المتبرجات من الصبايا وقد أطلقن شعورهن ولبسن السراويل الضيقة أو الفساتين القصيرة ، يستعيذ بالله ولا تهدأ نفسه إلا حين يدخل إلى المسجد فيتوضأ ويصلي ويقرأ ما تيسر من آيات الذكر الحكيم .

وكان الشيخ علاء أيضاً لا يفوته أن يرى ما يحدث من علاقات بين الشباب والبنات في الجامعة ، ويرى بعضهم بعد انتهاء المحاضرات خارجين يتهامسون ويبتعدون معاً في جوف المدينة الصاخب ، إلى حيث لا يستطيع أن يضع بذمته ، فيستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ويقول لنفسه : القابض على دينه هذه الأيام كالقابض على الجمر، وبعد أن يصلي العشاء يأخذ في قراءة شيء من السيرة أو الفقه فيصل إلى أذنيه مذياع السيدة ماجدة يصدح بالأغنيات العاطفية: تعالى.. تعالى.. خلّي الدنيا تشوف فرحتنا.. فيغلق شبابيك النافذة ، ويضطر إلى احتمال حرارة الصيف حتى يغرق بالعرق .

وفي ذات يوم وكان الشيخ قد عاد عند مغيب الشمس ، وفيما هو يصعد درجات السلم المؤدي إلى شقته ، تصادف في اللحظة التي اقترب فيها من باب شقة السيدة ماجدة ، أن إنفتح الباب وخرج منه الولد أحمد راكضاً وأمه تلحق به وكانت بقميص نوم أحمر اللون , أمسكت بذراع الولد وكادت أن تصطدم بالشيخ ، فتأسفت وقالت : أرأيت العفريت لا يريد أن ينام ، يريد أن يخرج ليلعب في الشارع وقد صارت الدنيا ليلاً !

وقع نظره دون أن يقوى على رده على ما ظهر من "قبة" القميص من لحم أبيض ، نهر الولد وطلب منه أن يعود لينام ، ثم واصل سيره إلى أعلى ، فيما الأم دخلت وإبنها وقبل أن تغلق الباب ، إستدار بنظره ، فرأى ما استدار من مؤخرتها وما ظهر من ساقيها فاستعاذ بالله من شيطان الأنثى !

دخل إلى بيته ، توضأ ثم صلى وأخذ يقرأ في الفقه ، إنتبه إلى أن ذهنه مشتت ولا يكاد يلتقط شيئاً مما يقرأ، فذهب للنوم .

وجد نفسه وحيداً على حافة نهر من الماء العذب وكان عطشاً فشرب حتى ارتوى ، كان الجو ساحراً ظليلاً ، وكان جالساً تحت شجرة كمثرى تتدلى حباتها الناضجة ، فأكل منها حتى شعر بالانتشاء ، رغب بالنوم وكانت زقزقة العصافير تثير في المكان جواً عذباً بث في جسده الخدر، تمدد وفيما يشبه الحلم رأى حواليه ، أنهار اللبن والعسل والنبيذ، ثم أربع نساء لم ير جمالهن إنسان قط ، واحدة شقراء، شعرها ناعم ينسدل على كتفيها وترتدي ثوباً أبيضاً شفافاً، يوحي بكل مفاتنها، وأخرى سمراء ذات عينين ساحرتين ، وثالثة ممتلئة بيضاء ، لحمها كندف القطن يثير كل أوصاله بالرغبة ، ورابعة صغيرة الحجم ناعمة كفراشة . أنهن جميعاً له ، أشرب يا علاء ما شئت من لبن وعسل وخمر، وارتو باللذة من

أطايب النساء، شرب وشرب ولم يرتو , إحتضن الأولى والثانية ، ثم الثالثة فالرابعة ولم يصح إلا وقد غاب عن الوعي .

ما أن صاح مؤذن الصلاة ، حتى صحا الشيخ ، إنتبه إلى آثار الحلم ، فخجل من نفسه وذهب إلى الحمام ، إغتسل ثم توضأ وصلى . حاول أن يستعيد ليلته فابتهج بما لديه في الجنة ، ولكنه ما لبث أن وجد نفسه يفكر في الجارة أم أحمد ويتساءل : لمن تتبرج هذه المرأة المطلقة؟ تذكر ثوبها الأحمر، تذكر ليلته ، أنها الممتلئة البيضاء المثيرة للرغبة ، تعاطف مع وحدتها وحاجتها للرجل.. حاجتها للرجل! لطم رأسه بكفه.. ولكن هل يعقل؟ ولم لا؟ ألست رجلاً؟ هل تراني كذلك، أنا.. ما بي أنا .

إنني بحاجة إلى امرأة كما هي بحاجة إلى رجل ، فما الذي يمنع؟ الحلال.. الحرام.. الرغبة.. الدين..

تأخر في ذهابه للجامعة ، حتى سمع ضجيج مذياعها، إنها تصحو، ها هي تدخل المرحاض إنها ترتب الفراش ، ولا شك أنها بقميص النوم ، هل هو الأحمر؟ ثم سمع صوت الباب ينفتح فيخرج الولد إلى المدرسة ، إنها تعود لوحدتها .

إعتقد أنه لو بقي في البيت , لقضى نهاره كله يراقب حركتها اليومية ، نهض من فراشه غسل وجهه بالماء والصابون ، ثم دعك أسنانه بالفرشاة والمعجون ، ثم ارتدى قميصه وبنطاله ورش على وجه شيئاً من العطر، وخرج . نزل عدة درجات ، إنحنى مع انحناءة السلم , فظهرت له مؤخرة ماجدة , وقد تقوس ظهرها على الدرجات أمام شقتها , التي تقوم بمسحها كالعادة . نزل درجتين إضافيتين ، لم تنتبه له وقد تباطأ في سيره ، ظهر له الجزء الأعظم من فخذيها ، إنحنت أكثر فظهر سروالها الداخلي ، تنحنح فانتبهت لوجوده ، رفعت قامتها وأرادت أن تدخل بيتها ، خالها تقول له تفضل , فدخل وراءها .

* * *

رسالة من النقب

كانت تجلس وحدها، تفكر في هموم الدنيا، وفيما ستؤول إليه الأحوال بعد الأحداث المتلاحقة، حين قطعت عليها وحدتها دقات الباب، قفزت كغزالة في فورة الصبا إلى الباب الخارجي.

– مين؟

– أنا

لم تعرف صاحب الصوت، ورغم ذلك شعرت باطمئنان ما لصاحبه، وفتحت الباب.

– من أنت يا خالتي؟ الله يخليك لشبابك!

– أنا محمد، من طرف توفيق . إبنك!

وقبل أن يكمل عبارته، همت باحتضانه، فيما فرت منها دمعة حارة لم تقو على كتمانها، لكنها تراجعت في اللحظة الأخيرة.

تذكرت أنها منذ الصباح قد لاحظت أن عينها "الشمال" لم تتوقف عن الرفيف "اللّهم اجعله خيراً" كانت تردد، تمالكت أعصابها...

– تفضل! أأصنع لك شاياً ؟ أخبرني ما هي أخباره؟

وقبل أن تتواصل كزخات المطر أسئلة المرأة، التي هي مثل أمه تماماً، تدخل الشاب واختصر عليها عناء ذلك، فيما دس يده في جيبه، وأخرج منها ورقة مطوية بعناية فائقة وقال لها:

– كل أخباره هنا!

إنسحبت بهدوء بعد أن دست الورقة المطوية بعناية فائقة في صدرها، وقامت على عجل لإعداد الشاي. ما أن وضعت الإبريق على النار، حتى عادت أدراجها بسرعة.

– إقرأ لي يا حبيبي، إنني غير قادرة على انتظار إخوته حتى يعودوا ويقرأوا لي. تناول الشاب منها الورقة وبدأ في فتح طياتها، بينما قرفصت هي أمامه وتحولت إلى آذان صاغية، فجاءها الصوت من بعيد!

أمي الحبيبة.. إخوتي الأعزاء.

حين تركتكم في ذلك الصباح متوجهاً إلى مجمع الحافلات في ساحة البلدية، كان كل شيء عادياً، وفي الخامسة والنصف صباحاً، زاحمت حتى صعدت إلى "الباص" وجلست في أحد المقاعد. وبعد لحظات قليلة من تحركه باتجاه الخط الأخضر، إنفجر الوضع فجأة فأوقفنا أول حاجز، ثم صعدت مجموعة من الجنود إلى داخل الحافلة، وكانوا مستفزّين جداً، وقد عرفنا بعد ذلك أن أحدهم قام بإلقاء زجاجة على مجموعة من المستوطنين، أصدروا الأوامر فوراً أن ننزل جميعاً عن المقاعد، ونجلس في ممرات الحافلة، لم أكن محظوظاً حين رفضت ذلك فلم أجد سبباً لأن أجلس على أرضية الحافلة، فيما

المقاعد قد خصصت لنجلس عليها. وما زلت حتى هذه اللحظة أشعر بالآلام تجتاح كل أعضائي، حين أتذكر تلك اللحظات، ركلات الأقدام وقبضات الأيدي ومؤخرات البنادق، إنهالت على رأسي وأطرافي وكل أنحاء جسدي، وبعد أن أصبحت كقطعة قماش ملقاة على أرضية الحافلة، قاموا بتغمية عيوننا جميعاً، وتكبيل أطرافنا، وتوجهوا بنا إلى مكان ما, لم يكن على حال وجهتنا الأولى إلى ما وراء الخط الأخضر.

ساعات وبدأت حرارة الشمس اللاهبة، تبعث في أجسادنا الحرارة اللافحة، وبدأ العرق يتصبب من كل أجزائنا، فيما رائحته تثير الرغبة بالقيء، بعد ساعات أخرى توقفت الحافلة، ولم نكن على يقين لحظتها أين نحن بالضبط، بقينا أربع ساعات كاملة، فيما نشعر بحركة الجنود هنا وهناك، يتحادثون، يتجادلون.. ثم ترتفع الأصوات، وتتلاحق الخطوات، إلى أن قاموا بإنزالنا جميعاً، وأخذوا يفكّون عصابات عيوننا وقيودنا.

لقد كنا في النقب، أدخلونا واحداً واحداً إلى غرفة الأمانات، حيث يتم استلام "العهدة " التي هي نحن من قبل إدارة المعتقل، وفي غرفة الأمانات كانوا يأخذون منا حاجياتنا، ويقومون بإعطاء كل واحد منا "منشفة" وكأس ماء بلاستيكي، وفرشة إسفنجية وأربعة "حرامات" , وكانت هذه عهدتنا صيفاً , شتاء لا فرق.

أمي العزيزة ...

منذ الأيام الأولى تعرفت على الشباب الذين معي في الخيمة، كل واحد من قرية، لم أفهم أي شيء في البداية، سوى أن أحدهم ألقى زجاجة حارقة، في مكان ما، في تلك الأيام كانوا يطلبوننا للتحقيق الذي يدور حول إسمك، عملك، بلدك، هل تعرف شيئاً عن المقنعين، ماذا تسمع عنهم، من يشارك بالانتفاضة في بلدكم، ويرافق التحقيق ركل وضرب كذلك الذي عرفته في الحافلة، ولا شيء سوى ذلك.

لقد اشتقت إليكم كثيراً، وكم كنت بحاجة إلى أحضانك، وكنت على استعداد لأن أغمض عيني للمرة الأخيرة على صورة وجهك، يوم ضربتني الشمس حين أخطأ الجندي في "كتسين العد" وبقينا أكثر من ساعتين تحت أشعة الشمس الصحراوية اللاهبة.

أمي.. ما هي أخباركم، من يتولى الصرف عليكم، أنني أحترق حين أفكر بكم. دمعة أخرى حارة انهمرت من عين المرأة التي اعتصرها الألم، الله يجزيهم الخير، كل صباح أفتح باب الدار وأتناول " صرة التموين " التي يضعونها لنا. ولايكون لك أي فكرة، قالت في سرها.

صمت الشاب إحتراماً لدمعتها وانتباهاً لشرودها، مسحت دموعها؟

– واصل يا بني. لا عليك مني.

قالت :

- أشعر هنا بأنني أعيش وحيداً داخل حفرة، فالأسلاك الشائكة والكثبان الرملية تحيط بنا من كل اتجاه، ورغم أن المعتقلين هنا بعدد سكان المدينة، إلا أننا لا نرى سوى رفاقنا الذين معنا في الخيمة، والآخرين نراهم في دورات العد، فقط، وسائل الحياة معدومة، لا تلفزيونات ولا شوارع ولا مقاه ولا شيء من هذا القبيل، لكنني أشعر بالفخر يا أمي، فأنا لم أذكر إسم واحد من هؤلاء المقنعين الذين كنت أراهم يلقون بالحجارة، ويضعون حواجز الكاوتشوك، ويتسلحون بالمقاليع .

أمي.. أرجو أن تحتملي سوء خطي وأخطائي الإملائية المحتملة.. قاطعته مرة أخرى.. هذا يعني.. معقول.. لكن إبني.. الذي لم يدخل مدارس قط.. جاءها صوته من بعيد يحمل الثقة والاعتزاز، لقد تعلمت يا أمي، هل تعرفين الأستاذ حامد ؟ أنه معنا، أشياء أخرى تعلمتها،المهم أن تنسجي قناعاً، وتحضري لي مقلاعاً.. سأخبركم بالمزيد حين نلتقي .

دمعة أخرى تدحرجت في مقلة الأم، رافقتها بسمة من القلب . ودّعت الشاب بحرارة ، ثم توجهت إلى المطبخ ، وتناولت على عجل "طشت" الغسيل وخرجت إلى الشارع .

* * *

المـحــبـس

ما أن صعدت إلى السيارة بجوار زوجها، حتى أدارت جهاز التسجيل، وأخذت تنصت السمع إلى الموسيقى الهادئة. حتى إذا ما انطلقت السيارة، وقد تركت شباكها المجاور مفتوحاً، تطايرت خصلات شعرها الناعمة مع الهواء، وتساقطت بفوضى مجنونة على وجهها، فزادت انسجامها مع أحلامها، حتى قد بدا لها أنها لم تخرج بعد من أجواء الحفلة التي انتهت للتو .

إنتبه لها الزوج فحاول أن يأخذها إلى أجواءه بحديثٍ ما ، لكنها كانت ترد باقتضاب أحياناً، وأحياناً أخرى لا تنتبه إلى سؤاله إلا بعد أن يكرره مرة أخرى . ولأول مرة شعر الزوج بعدم الرضى لحالة الشرود التي تسود مزاج زوجته ، ورغبتها الواضحة في الانفراد بنفسها بعيداً، بما يشبه التجاهل لوجوده ، الأمر الذي يمس رجولته . لكنه كظم انفعال عدم الرضا، ولم يسمح له بالتصاعد، آملاً أن يستوعب الأمر، حين يصلا إلى البيت، أما هي فما زالت تتذكر تلك اللحظات، بل ما زالت تعيشها ، وتتلذذ لذاك الشعور الذي انتابها للحظة بعد أن عاشت سنيناً , إعتقدت خلالها أن مثل ذلك الشعور لن ينتابها أبداً .

كانت فاتن قد دُعيت في تلك الليلة إلى حفلة عيد ميلاد إحدى صديقاتها، وكعادتها لم تشعر وهي تتأبط ذراع زوجها أن شيئاً ما سيحدث في ذلك المساء، سوى أنها ستقضي وقتاً ما، تقتل فيه الفراغ والملل، ثم تعود في آخر الليل ككل مرة، وتندس في فراشها، ثم ما تلبث أن تغط في النوم . وما أن وصلت المكان حتى استقبلتها صديقتها بالحفاوة التي تليق بمكانة زوجها، الذي ما لبث كعادته أن استأذن منها وأخذ يتنقل بين رجال الأعمال باحثاً عن صفقة ما. وكان أن جلست إلى طاولة تضم لفيفاً من المدعوين وكان بينهم فتى، ما أن رأته حتى اختلج كيانها لوسامته، أشاحت وجهها عنه، وشاغلت نفسها بمحاولة التعرف على أجواء المكان وعلى عشرات الناس الذين كانوا كعادتهم أيضاً يتبارون في مثل هذه السهرات بأناقتهم وعطورهم وابتساماتهم العريضة، وحتى أحاديثهم التي لا تخرج في الغالب عن إطار المجاملات وعن أصول العمل والأتيكيت .

لحظات وكانت صديقتها المضيفة تقوم بتعريفها إلى الجالسين حولها وبينهم الفتى الذي ما أن سمعت اسمه حتى شعرت أنها تعرفه. ربما أكون قد قرأت عنه في مجلة ما. ربما أكون قد صادفته قبل سنوات في الجامعة.. ربما.. غالبت انفعالاتها وهي تمد يدها لتصافحه، وما أن نظرت إلى عينيه حتى اضطرب كيانها فشعرت برعب اللحظة , التي خشيت طوال سنواتها الماضية أن تمر بها.

كان فتى رقيقاً وكانت الصدفة قد وضعته على المقعد المقابل لمقعدها تماماً، فكان لا بد من الحديث بينهما، وكان الواجب يفرض عليه أن يجاملها بالحديث، فحدثها عن الفن، وكيف أنه يكون في قمة الاضطراب حين يمسك بالريشة ويبدأ بتلوين اللوحة وانه حين ينتهي منها، إنما يشعر كأنه ملك , إمتلك الدنيا بأسرها، حتى إذا ما انتهى منها، شعر بخيبة أمل كبرى، تلازمه إلى أن يبدأ لوحته التالية وهكذا.

الفن كالسراب هكذا قال لها، لكنه رائع، وكم أتمنى لو أن الناس جميعاً يمارسون الفن.. كانت تستمع إليه بكل جوارحها، فتتخيل أنها تسمع أعذب صوت سمعته في حياتها، فتطرق رأسها، إلى أن بدأت موسيقى الفالس بالعزف، حينها استأذن ليرافقها بالرقص، كان لا بد لها أن توافق، وما أن لامست يده يدها، واقترب جسدها من جسده، حتى شعرت كأنه القدر يحاصرها، ورأت نفسها وقد عادت بها السنون، وأنها ما زالت فتاة صغيرة تجلس على مقاعد الدراسة، تحلم بفستانها الأبيض، بجوار فتى جميل يشبه هذا الذي يراقصها، يفاتحها بالحب ثم يطلب يدها، فتطير بها الدنيا.

ما زالت الموسيقى تنساب هادئة، وما زال الهواء الربيعي البارد يطير بخصلات شعرها، ويلامس وجنتيها الحمراوين لارتفاع حرارتهما من الانفعال والخجل، ما زال الفتى الوسيم بحديثه العذب عن الفن والحب، يمسك بيدها ويقترب منها، وما زال الاضطراب يجتاح كيانها مع ملمسه، مع لهاثه، مع

حديثه العذب، مع طلبه ليدها! فجأة يضغط زوجها على الفرامل، فتتوقف السيارة، يطفيء المحرك، فتهدأ الموسيقى وتتهدل خصلات شعرها على وجهها.

ينزل , ثم يدور من أمام السيارة، ويفتح لها الباب، تخرج وتتجه وهي مطرقة , إلى داخل البيت، تبدأ بخلع ثيابها وارتداء ملابس النوم، ثم تندس في الفراش، لكنها تفاجأ بزوجها، ينحني على جبينها ويطبع قبلة باردة، تلقتها ببرود , همّت أن تنام , لكنه ما لبث أن مدّ يده , وأخرج من جيبه علبة مغلّفة بورق الحرير، ثم قال:

- حبيبتي، أغمضي عينيك.

فعلـــت.

- إفتحيهما.

- فعلت.

كان خاتما ألماسياً غالي الثمن.

- ما رأيك ؟

- جميل ولكن , ما المناسبة ؟

- صفقة مهمة نجحت بعقدها الليلة.

- مبروك.

ثم همّت بالنوم، آملة أن تحلم بالفتى الذي طالما طاف بخيال مراهقتها, ولم تره سوى هذه الليلة، إندس إلى جوارها، واحتضنها بعد أن التصق بها، تمنّعت، لكن يده اليسرى امتدت إلى فخذها، فيما كانت الأخرى تتناول خاتم الألماس لتضعه جانباً، شعرت بالإحباط وبالرغبة في أن تصرخ وأن تقول لا، لكن اليد ضغطت بشدّه على فخذها، فأبعدتها بهلع، وما أن رأت المحبس حتى صرخت دون أن تقوى على كتمان الصرخة هذه المرة، فقد تذكرت تلك اليد بمحبسها وقد امتدت يوما , إلى ما تحت فستانها، فيما كانت اليد الأخرى تتقدم لها بمصاصة الحلوى، ولم يكن لها من العمر حينها سوى خمس سنين.

* * *

ليس غير الظل

- موافقة .

قالتها بانكسار، ثم احتضنت الطفلين المتجمدين في مكانهما، تناولت جواز سفرها وتذكرة الطائرة من ذلك الرجل الذي باعد اليمين بينها وبين جسده القميء ، الذي كان يسحق رغباتها كل ليلة ، حملت "صرة" ملابسها وخرجت إلى الشارع ، حيث لوحت لأول مركبة صادفتها .

إنحدرت دمعة حارّة على خدها ، لسعتها حرارتها ، مسحتها بكمها ، إنتبهت إلى أن الماكياج قد لوث يدها، فتحت حقيبتها ، أخرجت منها مرآة صغيرة ، إحتفظت بها منذ فترة ، تبينت المدى الذي فرّت فيه أنوثتها ، هالتها التجاعيد التي سابقت الزمن في الغربة .

بعد قليل أصل إلى تلك البقعة التي غادرتها قبل عشرة أعوام ، أعود من حيث بدأت ، لكن دونما زهرة الصبا . عشرة أعوام فرت من بين أصابعي ، كما تفر قطرات الماء ، كان يمكن لي أن أتمتع .. أن أعيش زماني الذي لا يتكرر . تأبطت ذراع حبيبها الذي اصطادته بعد طول عناء ، بعد أن دست في حقيبة ملابسها كل مكنونات طفولتها ، ورومانسيات مراهقتها ، كل ما لديها من زجاجات العطر، وكل الأحلام التي إدخرتها رصيداً لمواجهة تقلبات المستقبل الذي بدأ يفتح ذراعيه لها .

كانت قبلة تاريخية تلك التي ابتدأ علاقته بها ، بعد أن بنت في رأسه صرحاً من الأوهام حول خطتها في ترتيب علاقة له مع أختها رائعة الجمال ، كما تبدو في الصورة ، أقنعته بكتابة رسالة لها .

ما أن يكونوا قد استلموا برقيتي ، حتى بدأوا يعدون الأيام .. ساعات وأكون في أحضان ذلك العجوز، لا بد أن تكون ساقاه قد ارتختا قليلاً ، ويكون الشيب قد غطى حاجبيه .. حماده سأغرقه تقبيلا ، هذا الصغير الذي لا بد أن يكون قد شب ، ولابد أن تكون , قد غطت شفته العليا شعيرات الرجولة . أيكون حليقاً ، أم ملتحيا كشبان هذه الأيام؟ كان الرد الذي ما جاء أبدا، مبررا لأن تزوره كل فترة، فتحدثه بحرارة حول مفهومها عن الحب والعلاقة بين الرجل والمرأة، يا له من رجل، عشرة أعوام، وتكاد تعد على أصابعها مجموع الدقائق التي كان يتحدث فيها حول مفهومه عن الوظيفة الأزلية للمرأة في الإنجاب والطبخ وتوفير مستلزمات الراحة لزوجها .

كان رجلاً سمجاً، معتداً بنفسه ، يشرئب كبرياؤه ، عن جذر بئر النفط الذي يملكه والده , وقد أضاف إلى ذلك رصيد الثرثرة الذي تعلمه من جلساء المراهقة الثورية ، تعرف إليها فيما كان يعود أباها في المستشفى القريب من بيته ، مع مجموعة من الرفاق الذين يتزعمهم هذا الوالد المغفل .

كانت شلّة عائلية ، وكانت "عنايات" مخطوبة لفتى معثر الحال - على قدّها- لم تشدّه بجمالها المتواضع في البداية ، لكنها تتمتع بشخصية قوية وجريئة ، تثير الحرارة في ذلك الجمع . عرفت قدماه باب بيتهم وكل تفاصيله ، وتذوقت شهيته المتواضعة طعم فولهم وجبنتهم وطعامهم الخالي من اللحوم , وكانت هي ربة البيت التي تقوم بإعداد الطعام دائماً .

كل مساء يتجمع الحشد ، للتداول في أمور الساعة ، ساعات طويلة من إنتاج المقولات والتحليل السياسي ، الذي يغرق في تفصيل التوقعات حسب أهوائهم .

تذوق إبن الصحراء، للمرة الأولى طعم الرحلات الجميلة ، التي تشارك فيها نسوة من خارج إطار المحرمات ، وتشنفت أذناه بضحكاتهم الأنثوية الطازجة .

طلب الصغار من والدهم أن يذهب بهم إلى حديقة الحيوانات ، ذهبوا جميعاً يوم جمعة ما , ومعهم الزوادة التي قامت هي بإعدادها . كان من السهل عليه أن يتخلص من ذلك الذئب الكامن في داخله ، لكن كبرياءه السمجة كانت تترفع عن العاديات ، وتتطلع إلى شبيهات ميرفت أمين ، فكان يرى نفسه المفترضة التي رسمها خياله بكثير من المبالغة غير الواقعية .

في ذلك المساء جاءت إلى بيتهما، كما تعودت دائماً، حيث يلتقي الجميع، لم يكن سواه ورفيقه الذي أغلق باب غرفته يرتشف شيئاً من المتعة مع صديقته ، جلس وإياها يتحدثان ، فيما الجلبة من

الغرفة المجاورة تثير في كليهما توتر الرغبة، كعادتها ساقت إليه قليلاً من أنوثتها، داعبها، فوجيء باستسلامها، فغرقا في قبلة تاريخية .

في المساء عصرت كل لباقتها، فاتحت زوجها برغبتها في زيارة أهلها ، فكر قليلاً وبعد أن قام بحسبته, رفض بشدة ، بلعت جراحها ، وانكمشت في الفراش ، حلمت بأمها ، وقد لفظت أنفاسها ، هجمت عليها ، راعها أن تجدها جثة هامدة .. صرخت :

- اللهم اجعله خيراً .

عاودت إلحاحها على زوجها، ثار، إحتد الجدل بينهما، صفعها بقسوة .

فتحت تلك القبلة الباب لعلاقة ملتهبة بينهما، عاشا خلالها كعصفورين عاريين، يدفيء أحدهما الآخر . ولم يفهم كلاهما ما حدث، ولم يحاولا أن يفسرا ما حدث .

كان يعتقد أن الأمر سيتوقف بعد مرور الأسبوعين اللذين يفصلانه عن موعد السفر، عند ذلك الحد, لكنه علم فيما بعد أنها طلبت من أهلها أن تسافر معه، لتعمل، وافق والدها طالما أنها ستكون في حماية هذا الرجل الذي يثق به! حين التقاها في مكتب الشركة التي تعمل فيها، لم تعرف السبب الذي دفعها لإخفاء إصبعها الذي يحمل خاتم الزواج , ولم يكن لدى الرجل ما يغري امرأة في أن تحلم به زوجاً، كان شاحباً، قبيح الوجه، قصير القامة، موظف صغير في الشركة المجاورة، لكنه رغم ذلك سمح لنفسه بالتودد إليها . لم تصده، فهي بحاجة لأن تتلمس مكامن كبريائها التي سفحتها على هضبة ذلك الرجل / الحلم ، الذي تمنع عليها ، رغم أنه يطوقها كل ليلة بذراعيه الأنانيتين .

التقاها يوماً وهي خارجة في طريق عودتها، دعاها لتناول طعام العشاء، وافقت، دخل في الموضوع، طلب يدها، فطلبت منه وقتاً للتفكير :

- يجب أن نعلن زواجنا .

فوجيء بها، وكانا قد اتفقا انهما يلتقيان جسدياً، طالما هما يرغبان في ذلك، كان صريحاً معها منذ البداية، فقال لها أنه لا يرى فيها زوجة المستقبل، لكنه يعتقد أن من حقهما أن يمارسا الرغبة طالما هما يودان ذلك، وفي الوقت الذي تتوقف فيه الرغبة الثنائية ، يصيران حينها محرمين على بعضهما، وافقت وكانت تمارس معه سياسة التوريط والأمر الواقع، لم يعلن زواجه منها لأنه لم يعتقد أنه تزوجها، وإنما شرّع لها ذلك المستوى من العلاقة .

كان أهله يوجسون أن يكون ما بينه وبينها شيء أكبر من علاقة عابرة، يفسد عليهم مخططاتهم في تزويجه امرأة تليق بمستواهم، فيما لم يكن هو مقتنعاً سوى بامرأة من عالم الأحلام يعيش وإياها علاقة خاصة، يختارها بنفسه، لكنه لم يلتقيها بعد، إنها على كل حال ليست عنايات، هذه المرأة المندلقة عليه اندلاقاً رخيصاً، لا يغري من هم مثله .

- هل فكرت يا حبيبتي؟

وشعر بنشوة تجتاح كيانه، فهو كثيراً ما خاطبها تلك الأنثى، التي تتراءى له أطيافها تدغدغ الخيال، ولا تمس البشرة المتيبسة، لكنها المرة الأولى التي لا يتلفت حوله خشية أن يسمعه أحد فيتهمه بالخبل .

- ليس بعد!

- متى إذاً؟

سألها.

- بعد يومين

أجابته.

قنع بالإجابة وبات ينتظر على أحر من الجمر موافقتها .

تناولها كعادته، تمنعت، دهش لتمردها، فاقتنع بأنها جادة في مسعاها .

- حسن لكن بشرط .

- ما هو؟

- أن تقيمي مع أهلي .

كان عاطلاً عن العمل، وهي التي تتكفل بأجرة البيت، ومصروفاته .

- إذاً لا بد من الافتراق .

- موافق .

- أريد المؤخر .

- ومن أين آتيك به؟
- من أهلك. أليسوا أثرياء؟
- اذهبي واطلبيه منهم!

لم تكن المساومة بينهما لتنتهي بأن تحصل على شيء من المال، فذهبا في الصباح إلى المحكمة ووقعا صك الطلاق .

عشر سنين وتضطر كل ليلة إلى احتمال تلك الطقوس، التي ما كانت في صباها تعتقد أبداً أن تكون بمثل هذه القسوة! لقد ملّت أنفاسه النتنة وملامحه المزعجة، ملّت خشونته المرعبة، ملّت رائحة الطعام وجدران البيت المزنرة بالقضبان، نقيق حماتها، وأوامر كل أهل البيت، ملّت رؤية روائح البراز الملتصق بملابس الصغار والكبار الداخلية .

ملّت رؤية كل مشتقات النفط ، ملّت الرطوبة ، ملّت النظرات الساذجة المتكبرة . ملّت كل شيء حولها . وكل ليلة كان يأتيها طيف أمها، تضعها في حضنها، فتبكي ما شاء لها البكاء . في الصباح تشعر براحة مفاجئة، فتواصل حياتها كالمعتاد .

في ذلك الصباح، فيما يهم بذهابه المعتاد إلى عمله، وقفت في طريقه!

- أريد الطلاق!
- يمكنني أن أوافق، لكن بشرط!
- ما هو؟
- أن تعودي بصرّتك. بصرّتك فقط .
- وأولادي؟
- إنهم لي .

لم تجب لدهشتها. فيما ألقى عليها يمينه وخرج .

ما أن حطت الطائرة، حتى ركضت بكل قواها، لتحضن أباها وأخوتها .

- ربما لم تصلهم برقيتي؟

تذكرت أمها :

- ظلّ رجل ولا ظلّ حائط!

لماذا ليس غير الظل؟ لماذا؟ لماذا؟

إحتضنتهما بكل مشاعر الدنيا . إنهما قطعة من لحمي وأعصابي، لكنهما كانا كخشبتين غريبتين، يتطلعان بتقزز نحوها، ثم تملصا هاربين إلى ذاك الرجل الذي باعد اليمين بينها وبين جسده .

* * *

رسائل إلى مجهول

لم تسعها الدنيا من الفرحة حين طلبت منها أمها أن تقوم بإعداد القهوة للضيوف فتوجهت للمطبخ وشرعت بإعدادها وقد اعتصرت كل خبرتها . لقّمت الإناء بنصف ما لديهم من حّب الهال، غسلت الفناجين جيدا وفركتها بأصابعها ثم جففتها، تحسست إحداها بشهوة، خجلت من نفسها، ثم مسحت ما اندلق من القهوة على الصينية التي حملتها وتوجهت بها إلى الصالة، تذكرت شيئاً فوضعتها على المنضدة في الممر بين الغرف ثم ذهبت إلى المرآة ونظرت إلى نفسها وكأنها لا تعرف شكلها، لم يظهر لها سوى وجهها المدور، إبتسمت قليلا, ثم عادت وبلطف شديد حملت الصينية, بأطراف أصابعها, وتوجهت إلى حيث الضيوف ينتظرون طلّتها .

ألقت التحية بخجل, وسرقت من الزمن لحظة , نظرت فيها إليه حيث يجلس بجوار أمه .

- يسعد مساكي يا حبيبتي، ما شاء الله، قمر في ليلة 14. دارت عليهم بالقهوة ثم جلست بجوار أمها، وبعهد قليل استأذنت .

شربت أم محمود القهوة مع جارتها, ثم انصرفت وابنها, بعد أن اتفقت الجارتان, على الالتقاء بعد أسبوع, تتشاور فيه العائلتان بالأمر . لم تنم تلك الليلة, فأخذت تتخيل ملامح الفتى الذي صار شاباً، لم يتغير باستثناء ذلك الشارب , الذي تلونت به شفته العليا، فما زال هو محمود ابن الحارة الذي قذف يوماً بكرة القماش، التي صدمتها بقوة دلت على فتّوته, ولم يعتذر يومها، بل رمقها بنظره حقد وكأنها كانت السبب الذي منعه من تسجيل هدف كروي في مرمى الخصم، رفع يده وكاد أن يهوي بها على وجهها، تحسست وجنتها وكانت قد احمرت، ضمت أطرافها وانكمشت، وتخيلت كم من الأهداف سيسجل الآن في مرماها، طردت الفكرة من رأسها وحاولت أن تنام، ولكن هيهات! إنها المرة الأولى التي تحلم فيها بشاب محدد، كانت دائماً ومنذ أن أصبحت في الصف السابع، تنتبه للجنس الآخر، فترى فارساً في منامها، يحملها على ذراعيه ويطير بها إلى جنة خضراء، يتوسطها عرش مرصع بالذهب، فيجلسها ويضع على رأسها إكليلا ملكياً، ثم يركع على ركبتيه أمامها . أيامها كانت تستعيذ بالله من الخيالات المبكرة، وتحصر نفسها بكراريسها وكتبها المدرسية، سنوات عديدة قضتها من البيت إلى المدرسة ومن المدرسة إلى البيت، تسير ولا تنظر إلا أمامها، حتى حفظت شكل الطريق، وأيقنت أنه بات باستطاعتها أن تعود إلى البيت بعد انتهاء الحصة السادسة مغمضة العينين، وما أن تصل حتى تضع حقيبتها وتقوم بتغيير ملابسها ثم تذهب إلى المطبخ، تساعد في إعداد الطعام وتدريب نفسها لمهمتها الأزلية كربة بيت، بعد الغداء، تنظيف الأواني، وفي المساء تنكمش مع أخواتها في الركن البعيد لمشاهدة مسلسل السهرة، وهو الفقرة التلفزيونية الوحيدة المسموح بها لهن, وحين تكون قصة عن الحب، تتطلع إليها العيون الحادة، ويطلب منها أحدهم أن تأتي إليه بشربة ماء أو بأي شيء ما، تفهم السبب الحقيقي، لكنها تذهب بهدوء وانكسار.

تذكرت يوماً كانت فيه المدرسة تحتفل بمناسبة من تلك المناسبات الكثيرة، التي يسمونها وطنية، وقد تأخرت عن موعد عودتها إلى البيت، فقامت الدنيا ولم تقعد عليها، وأصابتها النظرات المتهمة في أعمق أعماقها، ولم يهدأ أصحاب الشرف الرفيع من ذكور البيت، إلا بعد أن خرجوا وتقصوا عن حقيقة الأمر، فتأففوا وكأنها هي التي فجرت تلك المناسبة قبل عشرين سنة! كل يوم يمر وهي تراقب نمو جسدها، وتحاول أن تخفي ملامح ذلك النمو، تقترب منها الأنوثة، فيزداد الحصار من حولها، تحسب عليها أنفاسها، خطواتها، كلماتها . البنت هم منذ أن تولد إلى أن تموت , هكذا تردد أمها دائماً، وكأنها ليست امرأة وتضيف :

أما الولد فأينما يذهب فلا خوف عليه .

تمنّت من أعماقها أن تلبس سروالا كذاك "الجينز" الذي ارتداه أخوها يوما، فنظرت إلى ردائها الفضفاض، هكذا أفضل، انه يخفي كل علامات الأنوثة، لا صدر، لا أرداف، لا سيقان ولا يحزنون .

لم تقو على مفاتحة أحد, بخصوص تلك الشكوى التي طرحتها عليها زميلتها عزيزة حول مضايقة أخيها خالد لها، فهي كلما خرجت من المدرسة وجدته في انتظارها، يلاحقها إلى أن تقترب من البيت، هكذا كل يوم، إلى أن تجرأ يوما ودس في جيبها ورقة كتب فيها عبارات غرامية كتلك التي نسمع عنها في الروايات والأفلام . يومها عادت إلى البيت، وقامت بقراءة كل الرسائل التي كتبتها على مدار سنوات إلى مجهول، ثم دستها بسرية بالغة بين حاجياتها الخاصة، وها هي الآن تفكر بأن تهديها إلى محمود في يوم الزفاف .

ما أن نظرت إلى المرآة حتى هالها ما رأت، بعد قليل شعرت بالاعتزاز وقد ظنت نفسها ميرفت أمين، وليست راضية عبد القنوع، إنها المرة الأولى التي ترى فيها وجهها بكل تلك الألوان، التي جعلت منه شيئاً خيالياً، وترى جسدها في ذلك الثوب الملوكي الفاخر الذي يبرز شيئاً من تلك الكنوز التي أخفتها حتى عن نفسها سنوات طويلة . مشاعر وأفكار وخيالات عديدة تشابكت، إلا أنها حددت لها شعوراً واحداً، إعتقدت أنها ستتذكره طوال حياتها، وهو أنها ولدت لتوّها، أصبحت امرأة حرة، تمتلك نفسها، مشاعرها رغباتها، بيتها، رجلها، وأشياء أخرى لم تعرفها من قبل .

ها هو العرش الذي حلمت به طويلا والإكليل الذي شعرت بكبرياء أنها تستحقه، تراه على رأسها حقيقة هذه المرة، سمعت أكثر من همسة من أكثر من فم لأكثر من أذن، تقول أنه لو تم عقد مسابقة لاختيار أجمل عروس، لكانت ملكة العرائس، سرقت نظرة أخرى للذي يجلس بجوارها فانطبعت في ذاكرتها صورة شفتيه وهو يزمهما بنهم، إرتفعت لها الحرارة بداخلها، فيما الضجيج والهلع ينهكان قواها، فترغب بالنوم العميق .

بعد ساعات أعلن عن انتهاء الحفل، فسارت برفقته إلى حيث فض بكارتها بقسوة، وخرج إلى أفراد العائلتين بمنديل الشرف، شعرت لحظتها بالقرف وتخيلت نفسها شاة تم ذبحها في التو، فيما الأكف تطبع بصامتها الدموية على واجهات البيت، همّت بمناولته مجموعة الرسائل التي حفظتها وكانت تعتبرها جزءاً من ذاتها، ترددت، ثم سرعان ما غطّ في النوم.

في الصباح نهضت مبكرة, وقامت بتسخين الماء له ليغتسل، وبعد قليل جاءت أمها بطعام خاص، تناول معظمه، بينما مضغت هي شيئاً من اللحم، خالته اقتطع من لحمها، فلم تقو على بلعه، ربما تعودت على تناول الفول على مائدة الإفطار ربما. ما هي إلاّ أيام وسارت حياتها معه رتيبة مملة، يخرج في الصباح ويعود على موعد الغداء حيث يتناوله بسرعة ثم يعود إلى العمل، وحين يرجع في المساء، تكون هي قد داخت من خدمة البيت.

بعد أسابيع , عرف أصدقاؤه باب بيته، فأخذوا يسهرون بصحبة ورق اللعب، فيما تقوم هي على خدمتهم بإعداد الشاي والقهوة، وحين يأويان إلى الفراش ،يقوم بإفراغ غريزته فيها ثم ينام.

حاولت أكثر من مرة أن تلفت انتباهه بقميص نومها الذي يبرز مفاتنها، وببعض المساحيق التي تزيد من جاذبيتها، لكنه لم يكن بحاجة إلى كل تلك الأشياء، وكان كل مرة يقوم بمهمته، دون أن ينزع ثيابها، فيبصق ما بداخله بين ساقيها، ثم يغط في النوم العميق.

* * *

كان من عادته أن يصحو مبكراً، فيجلس على أريكة في الصالة التي تنتهي بباب الشقة، يبدأ بفنجان من القهوة مع سيجارة يمجّ دخانها، بينما يمدد ساقيه على الطاولة التي أمامه، ويفتح باب شقته وكأنه يفتح طاقة الفرج، يواجه يومه منذ الصباح براحة بال واستبشار.

يلقي جاره عليه التحية، حين يخرج من شقته المقابلة متوجهاً إلى عمله، بينما زوجته تتلصص من انفراج الباب من خلف كتف زوجها. تأخر يوماً في الصحو ولكنه كعادته فتح باب شقته وبدأ بارتشاف قهوته، وإذ بجارته تلقي عليه التحية.

- صباح النور تفضلي.

بعفوية وعادية ميكانيكية خرجت الكلمة من بين شفتيه. تلفتت المرأة يميناً، يساراً، فوق وتطلعت في الممر وبسرعة دخلت وأخذت الباب بيدها. نزعت قفازاتها، ثم الحجاب عن وجهها، هاله جمال عينيها وملاحة محياها، خلعت الجلباب، ثم رداءها الداخلي فيما فغر فاهه مندهشاً مما يرى ، لم تتفوه

بأية كلمة، وفي لحظات كانت أمامه، تلقي بحمالة صدرها في وجهه ثم تهجم عليه، حيث تمّ كل شيء بصخب على الأريكة .

أفرغت شهوتها, وشعرت براحة بال لم تشعرها من قبل، إنه الرجل الأول في حياتها, بل إنها الممارسة الأولى التي تقوم بها. تأمل بياض جسدها، قوامها، نهديها، أردافها، كم هو جميل هذا الجلباب الذي يحافظ على بياض البشرة، إنه أول من رأى هذا الجمال وهذا البياض وهذه البشرة :

- لم فعلتِ هذا؟

- لا أعرف , لكنني بحاجة إلى رجل أمارس معه رغبتي .

لم ير فيها سوف امرأة انتقمت من نفسها وقررت أخيراً أن تفعل شيئاً لذاتها, أما هي فقد عادت إلى البيت وشعور بالاعتداد بالنفس ينتابها، خلعت جلبابها، ثم ثوبها، تأملت جسدها الممتلىء في المرآة، تحسست أعضاءها التي ما زالت بكرا، تذكرت رسائلها، فتحت الصندوق ومدت يدها إلى ما بداخله، فكرت بأمر ما، لكنها سرعان ما تراجعت عن فكرتها، أقفلت الصندوق ثانية، وسرحت بخيالها في الأفق البعيد فرأته يمتطي صهوة جواده الأشهب، ثابتا في مكانه، لا يأبه بها، حزّت في نفسها لا مبالاته، فاغرورقت عيناها بالدموع .

* * *

زينب

تتأمل صدرها فيما قطرات الماء الفاتر، تتناثر عنه فتحدث فيه دفئاً ثم تتساقط فتتوزع في أرجاء المكان، ترفع عن جبينها خصلات الشعر المبتلة التي سقطت أمام عينيها فحجبت عنهما الرؤية، تدقق في الزوايا، الشقوق، تتأكد للمرة العاشرة من أن الباب محكم الإقفال . "ها قد شارفت على إغلاق عقدي الثاني، ولم تمسّكما سوى حمالة الصدر وأصابعي كلما خلعت ثيابي" تداعبهما بهدوء فتشعر بشيء من اللذة وتمني النفس باليوم الذي تتزوج فيه بعد أن تتخرج وتنتظر عاماً أو اثنين تكون قد ساعدت أهلها خلالهما، حتى يتخرج أخوها الأصغر ويتوظف ويحمل على كاهله أعباء إعالة الأسرة من بعدها، وإلى أن يحين ذاك اليوم فكل شيء مؤجل، على الجسد أن يصمت، وعلى القلب أن يقفل بابه، وان يلقي بمفتاحه في البحر .

بعد أن قامت بتجفيف الجسد الأبيض، شرعت بارتداء ثيابها قطعة قطعة، وفي كل مرة تلقي بتنهيدة عميقة، كما لو أنها تتعجل الأيام التي لم تبدأ بعد. تقف أمام المرآة تتأمل عينيها وسوادهما الأكحل، تنفرج أساريرها، فهي فتاة مليحة تمتلك جمالاً طبيعياً لا تقلق صاحبته على مستقبلها في الحصول على عريس مناسب. تجفف شعرها ولا تضع شيئاً من الزينة على وجهها، ثم تتوجه إلى صالة الجلوس، حيث يتحلق أفراد الأسرة، يتابعون بشغف أحداث الحلقة الثالثة عشرة من المسلسل اليومي، تشاهد معهم بقليل من الاهتمام، وما أن ينتهي المسلسل حتى يبدأ الصغار في النوم، أما هي فتضطجع على الأريكة الجماعية في صدر الصالة، تنتظر أن يحين موعد الفيلم العربي -أبي فوق الشجرة- إنها بحاجة إلى المتعة بعد أن حرمت نفسها من مشاهدة التلفزيون طوال شهور كانت تستعد خلالها لامتحانات الثانوية العامة.

تتابع بكل جوارحها مشاهد الفيلم، مشهداً مشهداً، ومع كل قبلة كان كيانها يهتز من أعماقه، أما وجهها فقد كان يحمر خجلاً لجرأة البطلين، ودون إرادة منها , تتلفت حولها خشية أن يراها أحد، وحين تتأكد من أن الجميع قد غطّوا في النوم , تعود لعبد الحليم فتندمج معه في الدور! في الصباح تنهض بهمة واضحة، تغسل وجهها وترتدي أجمل ثيابها، تتأمل في المرآة : عينها، خدودها، شعرها، تهمّ بوضع شيء من أحمر الشفاه على ثغرها لكنها لا تفعل، تمشط شعرها، تفرك بيديها خديها، ثم تلبس جلبابها وتلف المنديل على رأسها, فتخفي كل سواد شعرها، ثم تتناول حقيبتها وتخرج.

بعد قليل يمر بجوارها شاب، يحملق في عينيها، فتخفضهما خجلا، ثم آخر يطيّر لها كلمة إطراء، تحفظها في صمت وتواصل سيرها. تنتظر قليلا حتى يجيء الباص، تصعد وتضع التذكرة في الآلة المخصصة، تجاهد بين الأجساد المتراصة حتى تجد مكاناً لقدميها، تتأفف :

- أليس حراماً مثل هذا الاحتكاك الذي يثير في دواخلنا الغريزة؟

النظرات تنهال عليها من كل صوب، تتفرسها، تُعرّيها .

- الماسك على دينه كالقابض على الجمر!

بعد طول مشقة وعناء تصل إلى مقر الجامعة، تبرز بطاقتها على الباب وتدخل بقدمها اليمين وهي تتمتم ما تيسر لها من آيات الذكر الحكيم، ثم تتوجه رأسا إلى جدول المحاضرات الخاص بالسنة الأولى , فتكتشف أن لديها محاضرة بعد نصف ساعة , تتعرف على الأروقة بين المدرجات , وبعد ربع ساعة كانت في المدرج الرابع تنتظر. حفظت كل كلمة قالها الدكتور عن ظهر قلب وبعد أن ينتهي، يخرج الطلبة فتكون آخر من يخرج منهم، توزعوا، فتسير على غير هدى، إلى أن يدفعها الفضول ومحاكاة عدد منهم إلى الكافيتريا.

عشرات من الطاولات توزعت في أرجاء المكان دونما ترتيب، وتحلقت حول كل واحدة منها عدة كراسٍ، جلس عليها طلاب وطالبات احتد النقاش بينهم، شاي ودخان وضجيج شعرت كأنها في خلية نحل. ذهبت إلى الصندوق حيث دفعت ليره مقابل قطعة زرقاء من البلاستيك، حملتها إلى الزاوية حيث إناء نحاسي كبير يمتليء ماءً دائم الغليان، يرقد على نار دائمة الاشتعال، ناولت القطعة البلاستيكية إلى

"الجرسون" فأعطاها مقابلها كأسا من الشاي، حملتها وذهبت إلى حيث طاولة ترقد منفردة في ركن ناء لا يجلس إليها أحد، سحبت كرسيا وجلست عليه وبدأت ترتشف ما في الكأس بحياء .

كان مع مجموعة من أصدقائه حادا في النقاش، إلى أن بدأ يشعر بالصداع لكثرة ما حرق من السجائر , وما طرح من أفكار لم يسمع، ولم يرد أن يسمع ما يدحضها، توقف كمحارب يريد قسطا من الراحة , يلم خلالها ما تبعثر وما شرد من أفكاره ، ثم أخذ يجول ببصره أرجاء الصالة، فيرى الشفاه جميعاً تتحرك والأوداج تنتفخ، كأنها في سوق عكاظ ، رآها منزوية في الزاوية تجالس وحدتها، فتاة بكرا يلفّها الحياء، أثارت فضوله فتأملها طويلا عن بعد حتى حفظ شكلها ودون أن تنتبه إليه ، سار وراءها بعد أن خرجت من الكافيتريا .

توجهت إلى المدرج الرابع حيث المحاضرة الثانية والأخيرة لهذا اليوم، فعرف سنتها وقسمها .

في اليوم التالي وفي تمام الساعة العاشرة صباحاً، تبدأ محاضرتها الأولى، فيتوجه إلى المدرج الرابع وما أن يدخل حتى يبدأ بتفحص الوجوه ، فيراها في زاوية بعيدة تنكمش على نفسها، يتجه إليها ويجلس بجوارها :

- صباح الخير .
- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

لم يعجبه الرد، لكنه كتم في نفسه، وانتظر حتى انتهت المحاضرة .

- كيف وجدت الجامعة؟
- لا بأس .
- والتجارة؟

معقولة .

- لقد كتبت كل ما قاله الدكتور، أما أنا فقد كنت مشغول الفكر، هل يمكنني أن أستعير كراستك لأنقل منها محاضرة اليوم .
- تفضل .
- اسمي منصور.
- أنا زينب .
- نلتقي غداً .

توالت الأيام ولم يستطع منصور أن يتقدم منها أكثر من ذلك، حتى بدأ اليأس يتسرب إلى نفسه، وقد اشتهى منذ اللحظة الأولى التي رآها فيها هذا الجمال البكر إلى أن خطرت بباله فكرة :

- زينب أنت بحاجة إلى شرح في مادة الرياضيات؟
- أعتقد ذلك .
- يمكنني أن أساعدك .

وبدأ العلاقة معها، بعد كل محاضرة يجلس وإياها على مقعد من الرخام من تلك المقاعد التي توزعت في أرجاء الحرم الجامعي، وهكذا بدأت في أعماق نفسها، تقدر له ما يفعله من اجلها، تحترمه أشد الاحترام، وتعجب بنباهته العلمية، ولم تدر أنه في السنة الرابعة! واستمر هكذا إلى أن اقترب موعد الامتحانات :

- منصور، ضروري أن ألقاك اليوم، فغداً امتحان الرياضيات .
- لكنني متوعك قليلا ومضطر للذهاب إلى البيت .
- والحل؟
- يمكنني أن أعزمك على كأس شاي .

وافقت فوصف لها البيت الذي يقيم فيه، وهو ليس بعيدا عن مقر الجامعة .

ما أن أنهت محاضراتها وقد تجاوزت الساعة الثانية بعد الظهر، حتى توجهت إلى حيث وصف لها شقته وطرقت الباب . رحب بها، ثم فطن إلى أنه من الضروري أن يسعل، ففعل، ثم استأذن لإعداد الشاي، الذي أخذا يشربانه مع شيء من الحديث :

- أنا من الجنوب من أسرة محافظة، يزيد عدد أفرادها على عشرة أفراد، وأنا أكبر أخوتي، تنتظر العائلة تخرجي بفارغ الصبر .
- أما أنا فمغترب ، لا أظن أنني سأعود لأهلي، فقد اخترت طريقاً آخر، ليس مهما أن أتخرج، ربما كان أهلي بحاجة لي، ما رأيك بشيء من الطعام؟ لم ينتظر جوابها ونهض متثاقلا قليلا وذهب إلى

المطبخ.

تفرست أرجاء الغرفة الوحيدة التي يقيم بها منصور، لفتت انتباهها الفوضى، التي تسود المكان، الكتب المتناثرة، إنها من غير المقرر علينا في الجامعة، أدب، سياسة، إقتصاد، إنه مثقف، بيجامته، جواربه الملقاة على أريكة قديمة، تبعث رائحة تدفع القيء إلى خارج الفم، لون الوسائد وغطاء السرير وقد صارت بلون الأرض . سمعته يقوم بتنظيف بعض الأواني . بعد لحظات جاء منصور بالطعام، بيض مقلي ، صحن مليء بالزيتون الأخضر، وآخر بالجبن، لبنة، مارتديلا، زعتر، زيت مع قليل من الخضار، بندورة، خيار، ويسكي .

- ما هذا؟

- إن كنت لا ترغبين فلا بأس ، انه لي!

جلس بجوارها، بدأ في تناول الطعام، ومع كل لقمة يقترب منها، فتبتعد، سكب لنفسه كأسا وأخذ يرتشف منها، فيشتعل داخله، كأس آخر، حاول أن يقبلها، ارتعدت فرائصها واستهجنت لكنها لم تأخذ منه موقفاً :

- لقد بدأ وعيه يغادره وهذه ليست طبيعته .

أقنعت نفسها بذلك .

كأس ثالثة، رأسه تدور وتحلق به في خيالات أحالت واقعه إلى حلم، فها هو والفتاة التي اشتهاها طوال العام، يختليان في شقته . طوقها بذراعيه، قبلها، تملصت منه، لكن حلاوة الشفاه الطرية، إختلطت بحرارة الشراب فصار أشبه بمجنون امتلك كل جرأة الدنيا وكل الإصرار الذي يجتاحه لإكمال مشواره الذي بدأه منذ عام . دلق كل ما تبقى من زجاجة الويسكي في جوفه الملتهب، إشتدت حرارة الأعصاب واختلطت بجنة الخيال، أما هي فلم تسطع أن تهرب من ملاحقة لهاث أنفاسه الشبقة . قبّلها مرة أخرى، سمعت صوت عبد الحليم حافظ يغني في المذياع، فعادت مشاهد الفيلم إلى خيالها . زادها الدلال اشتهاء في نفسه فلم يتمالكها وهجم عليها كنسر انقض على الفريسة طرية اللحم، , حملها بين ذراعيه ثم ألقى بها على السرير . أخرست جرأته في حلقها الكلام، تفحصت أرجاء الغرفة، لم تر أية شقوق، النافذة مغلقة والشقة تطبق جدرانها وليس سواهما والشيطان .

بادرته بالسؤال على عجل :

- معك ليرة؟

عجب لسؤالها .

- لماذا؟

- اجبني معك ليرة؟

- نعم .

اعطني إياها .

ناولها ليرة ورقية بعد أن دس يده في جيبه .

ما زال المذياع يردد :

- يا خلّي القلب يا حبيبي.

....

- لنقرأ الفاتحة .

مذهولا رفع يديه وتمتم معها الكلمات :

- بسم الله الرحمن الرحيم ... إهدنا الصراط المستقيم ... صراط الذين أنعمت عليهم ... آمين .

بهدوء بدأت تخلع ملابسها، وتتحسس بأصابعه نهديها اللذين نفرا فجأة، بعد أن غطّا في نوم طويل وعميق . لقد تخرجت لتوّها وتوظفت وأعالت أسرتها، بعد أن اختصرت سنيناً عدة كان عليها انتظارها، في لحظة. أما هو فقد تمدد بجوارها وغفا .

بعد أيام انتهت الامتحانات، سأل عنها، بعد أن افتقدها وقد كان يرغب في طعام آخر وحصة أخرى في الرياضيات، لكنه عرف أنها قد غادرت على عجل، لتخرج من دنياه إلى الأبد .

* * *